التفكير الفلسفي في الشرق

قسم الفلسفة _ السنة الأولى

د. بشرى عباس

- ***المحاضرة الثانية***

علم الكون

يلاحظ أن المصري كان يقيس اتجاهاته بالنسبة إلى النيل ينبوع حياته فهو يواجه الجنوب الذي يأتي منه النهر و إحدى الألفاظ التي تعني الجنوب الوجه و الكلمة المألوفة للشمال قد تكون مشتقة من كلمة معناها مؤخرة الرأس، و الشرق على يساره و الغرب إلى يمينه لهذا فإن الشرق و اليسار لفظة واحدة. لهذا يمكن القول إن المصري يجوب بنفسه نحو منبع النيل، و إنه لم يتخذ اتجاهه الاول من الشرق مطلع الشمس حيث المنطقة التي أسماها أرض الله. لقد جعلت اللاهوتيات المتبلورة كما نعرفها المشرق أرض طلوع الشمس منطقة الميلاد و عودة الحياة بعد الموت لأن الشمس تشرق من هناك و هي فيما عدا ذلك مختصرة يقطنها آسيويون تعساء و تبتليها الجبال غير إنها ملك لإله الشمس الفتي، لهذا فإن غلال هذه البلتد الشرقية الطيبة تعزى ضمناً إلى الإله الشمس أكثر منها للسكان. و بالشعائر التي نشأت حول تمجيد الشمس المشرقة تتكرر الإشارة إلى فرح الخليقة و شكرها لطلوع الشمس كل صباح. و المقابلة بين المساء و الصباح هي المقابلة بين الموت و الحياة فالشمس تشرق إنهم يحيون لأنها تشرق عليهم. و ليس هذا التجدد خاص بالإنسان بل يشمل الحيوانات أيضاً.

هذا و يلاحظ أن صورو العالم لدى المصري القديم أنه متحرك و عن السماء فهي محمولة على أعمدة أو أن أحد الآلهة يرفعها أو أنها مرتكزة على جدران أو إنها بقرة أو إلهة ذراعاها و قدماها تمس الأرض. أما الأرض فهي كطبق مسطح له حافة مموجة و يظن أن هذا الطبق سهل مصر، و الحافة المموجة هي حافة البلاد الجبلية التي هي الأقطار الأجنبية، و هذا الطبق طاف على الماء. فمن تحته مياه يسميها المصري (نون) و هي مياه العالم السفلي و هي امتداد للحياة الأولى و إن الحياة مازالت تخرج من هذا الماء لأن الشمس تولد من جديد كل يوم، و النيل يستمد من هذه الماء وجوده إنها الماء التي تحيط بالدنيا إنه الأوقيانوس وفق الأرض قِدْر السماء المقلوب و هناك الإله شو إله الهواء و هو يقع ما بين السماء و الأرض مهمته الوقوف وقفة راسخة و حمل عبء السماء، أما قبة السماء تمثل ببطن بقرة سماوية مرصع بالنجوم و تحت قبة السماء توجد الأجرام السماوية، و الغريب أن القمر ليس له شأن كبير رغم أن هناك عبادات للقمر في الأقصر التاريخية. لهذا كان الإله القمر (نوث) أعلى شأناً كإله للحكمة و مثل القمر النجوم فقد كان لها

أهميتها في قياس الزمن و للشمس قوة محركة أخرى فهي تبدو ككرة تتدحرج و المصري يعرف الكرة المتدحرجة في الكرية التي يدفعها أبو جُعل على الرمل. و هكذا أصبح أبو جُعل رمزآ لشمس الصباح و بعد الظهر تُمثل بشيخ يسير متعباً نحو الأفق الغربي. و كذلك أوحى إليهم رمز الصفر و هو يحلق في الأجواء.

أصل الكون

أما عن قصص الخليقة المصرية و نحن نستخدم صيغة الجمع لأننا لا نستطيع أن نستقر على قصة واحدة منسقة. هذا و من السهولة أن لا نجد الخطوط المتقاطعة ما بين القصة المصرية عن الخلق و كل من القصص البابلية و العبرية بينما نجد التقاطع ما بين القصص البابلية و العبرية.

فعند المصريين نجد أن (نون) الهاوية الاولى هي المنطقة التي انبثقت منها الحياة و هذا ينطبق أيضآ على الشمس و على النيل لأنه يتألف من مياه جوفية. إلا أنه يجب علينا الإشارة كيف أن من المياه يبرز أول المرتفعات الطينية التي تعد أول الجزر الواعدة بحياة جديدة في سنة زراعية جديدة و حالما ترتفع هذه الروابي تتلقى لظى الشمس و هم كانوا يعتقدون أن في هذا الوحل قوة تهب الحياة.

ففي (كتاب الموتى) إشارة إلى ظهور رع آتوم الإله الخالق:

أنا أتوم عندما كنت وحدي في نون المياه الأولى

أنا رع في ظهوره الأول حين بدأ يحكم ما صنع

و يستمر النص ليؤكد على أن الإله خلق نفسه بنفسه ثم راح يخلق الآلهة. و الرمز الهيروغليفي الذي يعني رابية الظهور من أسماء الإله تمثل تلك الهيولى التي لا شكل لها. و معنى مصطلح الهيولى يشير إلى أن الإله ما قبل الخليقة هذه تقسم إلى أربعة أزواج.

كان للإله الشمس في الأزمنة الأولى أسرة من الآلهة و كانت هذه الأسرة أيضآ مجلس الآلهة الأعلى و مركزها الرئيسي في معبد الشمس. و للخليقة قصص متباينة ففي كتاب الموتى يقول أن الإله الشمس خلق أسماءه بصفته حاكماً.

و في نص آخر نجد أن الإنسان صنع على صورة الله و في هذا النص تأكيد على طبيعة الإله الخالق الذي يعني بخليقته من البشر: بالرعاية الحسنة قد حظي البشر مواشي الله. لقد صنع السماء و الأرض حسب مشيئتهم، و هناك أيضآ نص آخر يتعلق بالخليقة يدعى اللاهوت الممفيسي تختلف الظاهر عن النص الذي بحثناه من قبل إنه اختلاف بالدرجة لا في النوع، لأن العناصر بهذا النص توجد في نصوص مصرية أخرى بأماكن متفرقة. هذا النص عبارة عن حجر مكسر بالمتحف البريطاني يحمل اسم الفرعون الذي حكم مصر حوالي ٧٠٠ ق.م و هذا النص كما يقول

فرعون قد نسخه عن نقوش سابقة لأسلافه هذه الوثيقة جاءت من بدء التاريخ المصري من العهد الذي جعلت فيه السلالات الأولى عاصمتها الجديدة في ممفيس / مدينة الإله / بتاح/ فغدت مركز دولة دينية إضافة لأن مدينة (هليوبوليس) هي من العواصم الدينية التقليدية و هي موطن الإله رع ، هذه النصوص تصف الخليقة بشكل مجسد فالإله يفصل السماء عن الأرض و يلد الهواء و الرطوبة. هذه الفكرة التي تحمل بعداً فلسفياً انبثقت في قلب أحد الآلهة و قوله أمر حول الفكرة إلى حقيقة. إنها سلطة الحاكم الذي يخلق بمجرد الأمر. نظام الخلق هذا الذي كان منتشراً بمصر يستخدم مصطلح الاختراع بإدراك فكرة ما في الذهن الايجاد بالتلفظ بأمر خالق. و الفكرة و النطق من الخواص القديمة للسلطة بمصر. أنها سلطة النظام الذي يقوم على أساس انخراط الإله بهذا النظام، و هناك نص آخر يشير لأن الإنسان الفاضل لا يمحوه الموت بل يحظى بالخلود بسبب طيب ذكراه و بذلك نلاحظ أن المصريين كانوا ينظرون إلى الكلمة بوصفها تجسيداً لشيء محسوس. كلمة الآلهة ليست شيئاً بسيطاً بل هي تجسيد لكل ما هو مادي فالعناصر المادية لم تخلق فحسب بل خلقت من أجلها.